أخلاق عرب الرولة وعاداتهم

للمستشرق التشيكوسلوفاكي ألويس موزل (١٨٦٨ ـ ١٩٤٤م)
ترجمة الدكتور محمد بن سليمان السُّديس

الأطفـــال(*)

ولادة الأطفال وتسميتهم

يقال للمرأة التي مارست اتصالاً جنسياً مع رجل (وَحَمَه) خلال الأيام الثلاثين التي لم يتضح فيها ما إذا كانت المرأة قد حملت أو لم تحمل. فإن كانت قد حملت دعيت «نازلاً» أو «حاملاً».

والمرأة الرويلية لاتطلب عند ولادتها قابلةً أبداً. فزوجُ كُردي، مثلاً، ولدت طفلاً وهي راكبة على قَتَبٍ على ظهرِ ناقتها والقومُ ظاعنون، ولم تتوقف عن توجيهِ بعيرها. لقد قطعت حبل السُّرَّةِ بنفسها، ولفَّت الرضيعَ بثوبها، وترجلت عن مطيتها في المَقْطَن الجديدِ، ثم حملت الطفل (العيِّل) إلى بيتها.

والمرأة التى ترمي مافي بطنها، والتى مات ما في رحمها (رْمَأ) تكون موضع خوف.

وتعيش النفساء كما كانت تعيش قبل الولادة فلا تغيير في نوع الطعام الذى تتناوله.

واذا وُلِدَ وَلَدٌ ذَكَرٌ هَنَّأ الأَبَ أقرباؤه الأَدْنَوْن، لكنه لايظهر تعبيراً عن سرورٍ غير اعتيادي. كما لايدعو لعشاءِ لَحْمٍ. ولايُضحَّى بحيوانٍ أو يُذْبَح عند ولادة غلامٍ أو جاريةٍ.

ويغسل الطفل مدة سبعة أيام بعد ولادته ببول النوق، ويمسح جلده بالملح.

وفى اليوم العاشر ، أو العشرين أو الأربعين ، تَجْمَعُ قريباتُ النفساءِ القمحَ ، ثم يُسْتَخْرَجُ من سنابله ، ويُعَدُّ منه طعامٌ في بيتها تدعى إليه نساءُ الحي جميعاً . هذا الاحتفال يدعى «طْلاعَة العَيِّل» .

وتذهب الأم بطفلها لزيارة أقربائها جميعاً ، وتُدعى هذه العادة (تطليعَه) .

وكلٌّ يهدي للطفل شيئاً ، غالباً إما قَعُوداً أو مُهْراً ، وتَظَل الهدايا مُلْكاً له .

وتُسمي الأم ، دون سواها ، طفلها . هذا أحد امتيازاتها . وهي أحياناً تختار اسماً دون أن تُطيل التفكير فيه ، وفي أحيان أخرى قد توجهها تأثيرات شتى .

وهكذا وَلَدَتْ زوجُ الأميرِ النُّورِي ، على سبيل المثال ، صبيًّا حين كانوا قاطنين قرب قصر الاخيضر[1]، أو كما يسميه الرولة الخفاجي ، فسمت الصبى (خفاجي) ، وامرأة أخرى ولدت والسماء تمطر مطراً صيِّباً ، فسمت ابنها الصغير مطراً ، وولدت زوج كردي ابنتين مع أنها كانت شديدة الرغبة في أن تلد ابْناً ، فكانت تدعو الله ، وقد منحها ما أرادت بعد حين ، فسمت الصبي رجاءً .

واستعصت ولادةُ زوجِ عودةَ الكويكبي (تَعَسَّرَت) ولذلك قالت : «سَتُسَمَّى عسيراً» .

وامرأة أخرى امتلأت غيظاً لأن زوجها كان قد تزوج ثوًّا زوجاً ثانيةً سَمَّت ابْنَها مُغيظاً .

وتلقت زوج العبد حمار أبو عواد ضرباً على يديه قبل أن تلد ذكراً بقليل ، ولاتفتأ مغاضبةً له ، فسمت الصبى (زَعَلاً) في ذكرى سوء معاملة أُمِّه . ولما ولدت بنتاً بعد ذلك بقليل ، قالت : إن اسم أبوكِ «حمار» وسيكونُ اسمكِ «بَقَره» .

وليس ثمة بهيمةٌ أو نباتٌ لايمكن تسمية الطفل بها .

حتى السابعة يقال للطفل «وَغَد» (الجمع : وُغْدان) ، أو «وَرَع» (الجمع : وِرْعان) ، أو «عَجِي» (الجمع : عَجْيان) ، وبعد السابعة يقال للولد «عِيال»[2]. واسم الطفل الصغير الميت «فَرَط» (الجمع : أفراط). ويجب إحضار (تميمة) لهؤلاء في العيد التذكاري القادم لذكرى الميت (ضَحِيِّه).

● مراسم الختان ●

يختن الرولة أبناءهم بين السنة الثالثة والسابعة من أعمارهم ويكون ذلك عادةً في فصل الصيف (في أواخر أبريل أو مايو) إما يوم الإثنين أو الثلاثاء أو الخميس ، قبل اليوم الخامس عشر من الشهر القمري مباشرةً أو بعده مباشرة .

وقبل الختان بيومين ، تتوافد على بيت الرجل الذي سيختن ابنه الفتيات من الحى كله فيزركشن عمود البيت الرئيسي بريشِ النعام والخِرَقِ الحمراءِ والأشرطةِ (غَزَّوْا الـمْصَنَّع)، ويُعْلِنَّ بالصيحات السعيدة (زَغْروت) أن ختاناً (مْصَنَّع) يُستَعَدُّ له .

وبعد غروب الشمس يتجمع شباب الحيّ من كلا الجنسين هنالك . ويؤلف الشبان نصف دائرة مفتوحاً تجاه البيت ، حيث تشتعل نار عظيمة ، ثم تقف بين النار والشبان فتاة بالغة مغطاة الوجه حتى لايرى سوى عينيها ، وتمسك (الحاشي)، كما تُدْعَى هذه الفتاة ، بيمينها خنجراً حادًّا ، فيبدأ الفتية يضربون الأرض بأرجلهم ، ويصفقون بأيديهم ، ويميلون أجسامهم يميناً وشمالاً وإلى الأمام وإلى الخلف ، صائحين بنغماتٍ عميقةٍ : انتبهى! . . انتبهى! ، (دَحِّي دَحِّي)، ويَمَسُّون الفتاة بأيديهم فتتراجع وتدافع عن نفسها بالخنجر ، فيعزز الشبان حركاتهم ويهاجمون الحاشي بعاطفة أقوى ، بينما تدير هي الخنجر بحماس أكثر ، فيلمع الخنجر كالبرق ، ثم تتنحى الفتاة وتتراجع وتتقدم ، وحركاتها كلها يعكسها وهج النار خلفها ، وتَحِنُّ الأرض تحت أقدام الفِتْيَةِ الخابطين وهم يصيحون بأصواتهم العميقة الخشنة من الإعياء والشهوة : «دَحِّي دَحِّي» فإذا تعبوا سقطوا سَقطة رجل واحد وتصنع الفتاة كما صنعوا . . ويستمر اللعب حتى تقفز الفتاة ، التي تكاد تسقط من الإنهاك ، وتهرب .

ثم يستريح القوم برهةً . وأحياناً يتلو شابٌّ قصيدةً ، ويهتف الرجال والنساء الحاضرون بعد كل بيت : (ياهَلاَبَكْ ياهَلاَ) وحالما تنتهى القصيدة ، يقدم المضيف فتاة أخرى في المشهد ، وتبدأ التسلية (الدَّحَّة) من جديد .

وبصفة عامة ، يكون ثمة ثلاثُ فتياتٍ (حِشْيان) أو أربعٌ تَخْلُفُ كلٌّ منهن الأخرى ، ولاتنتهي (الدحة) حتى شروق الشمس . ويعادُ في الليلة التالية الشيءُ نفسه .

وفي صباح اليوم الثالث يُحضِر الأب أو أقرب أقرباء الطفل الذي سَيُخْتَنُ ناقة أمام البيت ، ويقطع عروق يديها بسكين ثم ينحرها وسط زغاريد النسوة . ويقال لمثل هذه الذبيحة «ذبيحة الـمْصَنَّع» . . تتشرب الأرض دمها، ويطبخ اللحم في قدور راسيات ، وفي الوقت نفسه يُعِدُّ أقرباء الصبي الخبز ، أو البر الرقيق المغلى «العيش» .

وإذا جاء الظهر حملت النساء الخبز والعيش واللحم إلى بيت الأب حيث بإمكان أي انسان أن يدخل ، بهذه المناسبة ، ويأكل حتى يشبع . ويدعى هذا الغداء «عَنِيَّة الـمْصَنَّع» . وبعد الغداء ، يضع الأب ، أو إن كان ميتاً ، أقربُ الأقرباءِ الولد في حُجره ، وهو مرتد ثياباً سوداء في ذلك اليوم ، ثم يقطع غُلْفَتَهُ بسكين حادة . . فيصيح الطفل من الألم ، وتزغرد النسوة من الفرح ، ويتقافز الفتيان على جيادهم ، ويطلقون نيران بنادقهم ، ويقومون بمناورة قتال «طْرادَ الخيل» أمام البيت. وحين يهدأ الصبي قليلاً ، يغسلونه ، ويلبسونه ثياباً بيضاء ، ويقـدِّم الأقرباء هدايَا من كل صنف ، كالملابس والأسلحة والأفراس والإبل الأبكار . . إلخ . هذه الهدايا (النِّحِيلِه) تكون للولد وحده . وحين تنتهي مناورة القتال يتسلى الرجال بالرمى نحو غرض . وذلك الغرض هو رأس الناقة الذبيحة الذى يوضع بعيداً نوعاً ما من بيت المضيف الذي يبدأون الرمي منه . ومن يُصِبْه يأخذْهُ ويطبخْه لنفسه .

● أهازيج تُغنَّى في مراسم الختان ●

تؤلف الفتيات مساء صفين في الغناء الذي أمام البيت وتتقدم اثنتان منهن داخل الطريق الذي بين الصفين . وتكون إحداهما حاسرة الرأس ، منقوضة الظفائر . . ترقص مميلة كلاًّ من رأسها وجسدها يميناً وشمالاً إلى الأمام وإلى الخلف . . لكنْ عليها أن تثبت في مكانها ، ولمنع ابتعادها عنه تمسك الفتاة الأخرى بيديها أثناء الأداء . وتصفِّق الفتيات الأخريات مع حركاتها تصفيقاً هادئاً ، ويغنين أهازيج تدعى «حفلة»، وهذه الكلمة هي أيضا اسم الرقص .

عَشِيـرِكِن يـاهَـالْغنـاديـرْ مـابِهْ رَجَـا لورَجَيْنَـاهْ
والـلى يْتَغَـالَى[٣] المخـاسِيرْ دور الخـواطـر بِـلِيَّـاه

المعنى :

ان زوجكن ياذوات الملابس الحسنة ، لارجاء فيه . . ومن يجد الثمن غالياً فلماذا نهبه الوصل بلاثمن؟[٤]

المرأة التي تحب اللباس وأن يدار بها في هودج تحتاج زوجاً لايمانع في النفقة التي يتطلبها ذلك ، فإن لم يمنحها واحد كل ماتريد بحثت عن آخر أكرم منه .

يـاراكِـبَ المَـلحْـا كِـزَّ المـكـاتـيـبِ
وِانْ دَنَّـقَـتْ تَـرْعـى عـطهـا المِـشـاعـيـبِ

المعنى :

أيا راكب الناقة الملحاء (أي السوداء)، اثْنِ الرسائلَ ثانيةً وحافظ عليها .[٥] فإن خفضت رأسها لترعى ، فاضربها بالعِصيِّ (أي لتسرع في المسير) .

تشتاق الفتاة لكلمة من حبيبها الذي مضى مع بعض تجار الإبل إلى مصر ، وتحث الرسول الذي يحمل الخطابات إلى الشيخ أن يسرع .

زاعُـوا من العيدْ وْمِقْفِينْ وْمـنَشِّرِيـنْ الـدَّلاَّلِ
عِـلمْي بِهُـمْ بِـالمَقـاطِـينْ ومْـرَكِّـزِيـنْ المَـقـامِ[٦]

المعنى :

لقد رحلوا بعد العيد ولكن نحو الجهة الأخرى ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم .

عهدي بهم في الأحياء ،[٧] وقد نصبوا المقام .

علمت الفتاة أين حل أهل حبيبها .

العيد : هو عطلة (الضحية) حيث يضحى البدو بناقة لكل فرد من أهلها يكون قد مات في السنة الفائتة . مقفين : تعني أنهم لم يتبعوا الآخرين في حركتهم إلى الأمام ، بل اتجهوا إلى الوجهة المعاكسة . وقد نزلوا قرب مورد مدة طويله (مقاطين). كلمة (مقطان) تدل على المكان

الذي يقيم فيه البدو إقامة طويلة في فصل الصيف ، ومن هنا : (قَطَنَّا على القَارَهْ «تعني : أقمنا طويلاً في القارة». المقام : هو عدةُ رفعِ الماءِ الخشبيةُ ، تربط فوق جانب بئر عميقة (انظر كتابي : بلاد العرب الصحراوية ، شكل ٣٥ ، ص ١٦١). ولاتعد مثل هذه العدة الا حين يعتزم العرب الإقامة في ذلك المكان بعينه طويلاً . وبتلك المناسبة يرتدون أحسن ملابسهم ، وتلبس النساء أجمل ثيابهن «مُنَشِّرين الدلَّال».

اذْعُـو راعـى الـشُّـوشِـهْ النـوري ما أحـلى هُوشِـهْ
يـامْشَـرِّدٍ لَلرِّدِي بُـوُشِـهْ ياحُـوس التِّـرْكْ يـاحُـوشِـهْ

المعنى :

ادعوا بطول العمر لصاحب الشعر الكثير ، النوري ما أحسن قتاله!

يامن يشرد الإبل التي ينهبها النَّذْل! إن قتاله شبيه بقتال الأتراك .

المعنى :

ادعوا : تعني «ياطويل العمر». حين المضي إلى المعركة يحسر كل راكب عن رأسه ، فتبقى غترته على كتفيه ، ويبقيها على الجسم وزن العقال المعلق حول الجسم . الشوشه : الشعر القصير غير المظفر في أعلى الرأس ، ولايترك عادة إلا خصلة منه ، ويحلق الباقي .

مَشَرِّدْ : (أو يِفِكّ) بُوشه : يُطْلِق غنيمته ، القتال مع الأتراك (أي مع الجيش النظامي) صعب على البدو ولذلك فهم يعجبون به .

يـامْنِيفِـهْ يـامِـزْنِـةَ الصَّيفْ يـابْـرُوقَـهـا يِـلْعْـجِـنّ
تلعب على البِيضْ بالكَيفْ وِشْ عـاد لـو يِـزْعَـلِنَ

المعنى :

يامنيفة يا من تشبه مزنة الصيف ، ما أجمل بروقها اللامعة! تلعب بالفتيات كما تريد ، وماذا يُهِمُّ إن غضبن؟[٨]

في أواخر أبريل ، حين يبدأ الصيف ، تصحب المطر عواصف عنيفة تجدد الجو تجديداً كبيراً . منيفة ، زوج أكبر شيوخ القبيلة ، لاحاجة بها لتحسد رفيقاتها ، لأنها تمتاز عليهن بالجمال والسلطة .

يـابـيـت أبُـو نَـوَّافْ يـامِـنْـوةَ الـبـادي
وِرْوِيَّـهْـمْ بـالـقـيـظْ خَـبْرا لَـلـوْرَّادِ
وضْـحُـونَهْمْ بـالـلـيـل تـوحـي لهـا مْـنـادي
تحـوفِـهِـنْ مْـنِـيـفـه يـابِـنْـت الاجَـوْادِ

المعنى :

يابيت أبي نواف ، يا أمنية المسافر ليلاً ! . .

ورواياهم في القيظ كالغدير الكبير الذي يجلب منه الماء ! . .

ولصحونهم في الليل منادٍ تسمعه [يدعو الجائعين إليها] . .

لقد أعَدَّتْهُنّ منيفة ابنة القوم الكرام الأجواد . .

أبو نواف «هو الأمير النورِي ، وزوجه منيفة ، ابنة للمرحوم الأمير سطام .

«بادي» : مثل «ساير» تعني : المسافر في الليل ، أو الزائر . تشعل النيران المتوهجة قرب كل من قسمي الرجال والنساء من البيت فتجذب المسافر حتى عن بعدٍ جِدُّ عميق .

«رْوِيَّهم» : الرّوِيّ هى «الرَّوَايا» أو حقائب الماء ، تصنع كل منها من نصف جلد بعير ، وتتسع لنحو ١٥٠ لتراً من الماء . وإن شح الماء في القيظ حصل عليه الجميع من بيت الشيخ .

الخبرا (الجمع : خَبَارِي) : هي المساحات المستوية ذات الأحجام المتنوعة في سهل واسع ، يجتمع فيها ماء المطر من الأراضي الأعلى . صحونهم : صحون هائلة الحجم لكل منها أذنان ، وغالباً ماوصل قطر أحدها إلى متر ونصف ، يحضر فيها العشاء للضيوف الذين يدعوهم الشيخ أو ممثله للجلوس ، مسمياً كلاً منهم باسمه ، وفي سكون الليل تسمع نداءات الشيخ هذا من بعيد .

صِبْيانْ ثُوبَ المَالْ لاتلْبِسُونُهْ يِسْتَاهْله نَوَّافْ وْحَيفِي زِبُونُهْ
لْيَاجَا نَهَارَ الكوْنْ وْيْعَقِّد رْدُونُهْ

المعنى :

أيها الشباب ، لا تلبسوا ثوبَ المال [ثوب غالي الثمن] ، إن من يستأهله هو نواف ، فثوبه ليس جديداً ، وإذا جاء يوم الحرب فإنه يَعْقِد رُدْنَيْهِ خلف رقبته [أي يشمر عن ساعده ويشترك في القتال] .

الثوب : هو قميص الرجل الطويل المصنوع من الكتان الأبيض . «ثوب المال» : ثوب ذو تطريزات تجميلية حول الرقبة وعلى الصدر . يصل طول كُمَّيْ هذا الثوب ، في الغالب ، إلى متر ونصف ، وينتهيان بزاوية حادة . وأثناء القتال ، أو حين يعمل لابس هذا الثوب عملاً شديداً يُرْبَطُ الكمان معاً وُيْلقَيَان خلف العنق .

«الزبون» : لباس يصنع من قماش ملون ويلبس فوق الثوب . إنّ نوافاً ، بصفته الأشجع ، ينبغي أيضاً أن يرتدي أحسن الملابس .

تَـبَشَّري يـاهَـلَ الخِيَـلْ نـواف شرى الـمَعْنَقِيَّـهْ
سيقـانْ مِشـاعِـلْ دراريـجْ مـن تَحْتْ عـود الحَنِيَّـهْ
قـال اركـبَـي لاتخـافي مـازالْ راسي عَـلَيَّـهْ

المعنى :

أبشروا يا أهل الخيل ، فنواف اشترى قرساً من سلالة الخيل (المَعْنَقِيَّة) . إن ساقَيْ مَشَاعِلَ كعمودَيْ دَوَرَانٍ تبدوان تحت عود الهودج المَحْني . لقد قال : اركبي ولاتخافي مادام رأسي على كتفَتَيّ .

تمتدح النسوة والفتيات نوافاً وزوجه مشاعل ابنه سطام وتركية . المَعْنَقِيَّهْ : تعد من خير سلالات الخيل . وترمز بُشرى شراء فرس (معنقية) إلى زواج نواف بابنة المرحوم الأمير سطام ، أي من ذريةٍ أحسنِ أسرة .

حين تدخل المرأة الهودج يجب أن تنحني فتُظهِرُ ساقيها بدون إرادتها . الدراريج (المفرد : دَرَّاجِهْ) : أعمدة الدوران الملفوف عليها الخيط .

الحَنِيَّه : تدل على رحل من نوع (القِتَب) ذى الأعمدة الطويلة المحنيَّة . إن بإمكان «مشاعل» أن تبقى في هودجها هادئة البال ، فإن نوافا سَيَصُدُّ أي هجومٍ معادٍ يهدد النسوان أثناء الرحلة .

وَاشُوفْ قْبَالَ الشَّطّ بْيُوتٍ تْبَنَّى
نَوَّافْ يَامَشْكَايْ نَبْغِي وَطَنَّا

المعنى :

إني لأرى أمام الشط بيوتاً تُبنى . .

يانواف يامن أشكو إليه أمري[٩] . . إننا نريد وطننا . .

ثار عدد قليل من الكواكبه على الأمير النوري ، وتركوا الرولة ، ونزلوا مع «العَمَارات» على الفرات . فأرسلت نساؤهم وفتياتهم للأمير نواف يسألنه أن يتدخل من أجلهن لدى الأمير ، أبيه ، لكي يعدن إلى وطنهن .

كلمة «وطن» نادراً ما استعملت . فالتعبير السائد هو «دِيرِهْ» .

تَسَمَّعُوا يا هَلَ الخَيلْ فلان ، يْطَوِّل شبابِهْ
ماطُولْ حيٍّ على الخَيلْ الطَّرْشْ كِلٍّ يهابِهْ

المعنى :

اسمعوا يا أهل الخيل ، إن فلانا أطال الله شبابه ، مادام حياً ويركب الخيل ، فإن كلاًّ يهاب الاقتراب من الإبل [أي إبل قومه لينهبها][١٠] .

يانَوَّافْ نَادُوا زَيِنَكُمْ صَالْحَهْ تَخَطَّى بَيِنَكُمْ
تِسْوَى سَلَايِلْ خَيِلَكُمْ

المعنى :

يانواف ، أُدْعوا حسناءكَم صالحةً التي تسير بينكم بخطى لطيفة! إنها خير من خيلكم كلها .

صالحة ابنة للنوري وأخت لنواف .

يـاصالْحَـهْ وِاسْمَعُوا يـاناسْ واهَـيلِكْ نـافْـلِينَ النّـاسْ
اَهَلْ هَدَّهْ وَاهَـلْ نُومـاسْ وَاهَلْ لِعْبٍ عَلى الافْراسْ

المعنى :

ياصالحة ، واسمعوا أيها الناس ، أن أُهَيْلَكِ قد فاقوا الناس جميعاً ، فهم أهل شجاعة وأهل شهرة ، «وأهل لعب على الأفراس» .

والصَّفْـرَا بَـاوَّلَ الـغَـارِهْ يـانَـوافْ شـاعَتْ اذْكـارِهْ

المعنى :

حين الغارة تكون الصفراء (اسم فرس) هي الأولى . .

يانواف لقد سار ذكرها وشاع! . .

لاما احْلَى ذِرْعانِكْ صِيتَـهْ بـالـوُشَـامْ مْـعَشْرِقـاتْ
مـا حَـلَى هَـدَّةْ اهَلْهَـا والـسّـيـوف مْحَـنَّـيـاتْ
مـا حَـلَى ثَـورَةْ جِمَلْهـا بـالشِّرايـا مْـبَـيِّـنـاتْ

المعنى :

ما أجمل ذراعيك ياصيتهَ ، وقد زُرْكِشن بالوشم!

ما أجمل غارة أهلها ، وقد حنيت السيوف!

ما أجمل ثورة جملها ، وقد جُمِّلَ بالزينات!

صيته : ابنة للمرحوم الأمير سطام كانت متزوجةً الأمير النوري . الهدة : يقصد بها جلبة الرمي ، في الهجوم ، وصيحات الحرب ، وصهيل الخيل ، وأنين الجرحى . مْخَنَّيات : قد حُنِيَّن ، أى صُبِغْن بالحِناء ، والمقصود أنهن ملطخات بالدم فكأنهن (مخَنَّيَاتٍ).

كانت صيته تمتطي جملاً أوْرَقَ قوياً، حين ترتحل القبيلة ، وكان رحلها «القِتَب» محلى ببطانياتٍ حُمْرٍ منوعةٍ ، ابتيعت من الأسواق .

الاَشْقَحْ ماحْلىَ هَـزْعَتِـهْ يـاصِيتَـهْ تِـرْتِبْ وَدْعَتِـهْ

المعنى :

ما أجمل مشية الجمل الأحمر[11]. إنها صيته التي تخيط الوَدَعَ الصغار (أشكالاً على قَتَبِهِ) .

لقد حُلِّيَ الرحلُ الذي على البعير ، والعنانُ بودعٍ صغارٍ بيضٍ على أشكالِ نجومٍ صغارٍ ، ومربعاتٍ وأشكالٍ أخرى . ومع مشية الحيوان المترنحة يهتز الرَّحْلُ أيضاً ويلمع الوَدَعُ لمعاناً غريباً .

الاشْقَـحْ وِانْ دِنِّي عَتَـبْ يَنْفي الـحْمِـيَري وَالـذَّهَبْ

الجمل الأحمر إذا جيءَ به عَتَبَ عَلى ثَلاثِ أَرْجُلٍ لَعَلَّهُ يُرِيد البطانيات الحمر ، والأهداب الذهبية .

حالما أَجْبَرَ العبيدُ الجَمَل «الأشْقَح» الذي تمتطيه «صيته» على البروك ، وعقلوا رجله اليسرى ليُنْزِلوا القتب بسهولة ، نهض وبدأ يقفز على رجليه الثلاث لأنه لم يك يرغب في أن يُحرم من الغِطاء والأهداب المنسوجة مع خيوط ذهبية .

الاَوضَـحْ يَـزْعَـجَ البِـدِّي يـاصيتَـهْ مِن ضَنَـا جِـدِّي

المعنى :

الجمل الأبيض يمزّق الوسائد التى تُسْند القتب . .

ياصيته إنك من ذرية جدى .

اعتادت صيته أيضاً أن تركب جملاً أبيض خالص البياض . بِدي : هي الوسائد التي تسند القتب في الرحل ، والجمل المليء بالحيوية يدير رأسه إلى الوراء ويمزق الوسائد بأسنانه .

ياصِيتَهْ بِنْتْ جِدَّيِنِ جِدٌّ يِنْزِل السَّاقَهْ وْجِدٌّ يِنْطَحَ الخِيَلِ

المعنى :

ياصيته ، يامن هي بنةٌ «لِجَدَّيْنِ» : جَدٌّ ينزل الأماكن الأخطر ، وَجَدٌّ يواجه الخيل[١٢] .

كانت أمّ صيته تركية ابنة شيخ الفِدعان . وكان أبو صيته سطام يختار المكان الذي تكون عشائره معرضَةً فيه للخطر الأعظم ليكون منزلاً يعسكر فيه . مثل هذا المكان يقال له «ساقِهْ» وكان أبو زوجته بطلاً مشهوراً لايقف أمامه الغزاه .

غَـزالٍ دَشَّكُمْ مـاهـاب يـابِنْتْ مْخَضَّـع الارْقَـابْ

المعنى :

غزال انطلق من بينكم غيرَ هيّاب ، يا ابنة مُقّطع الرقاب . . لم تك صيتة تخاف ، وإن استطاع العدو دخول الحي ، لقد ورثت عن أبيها مميزات شخصيته .

يـاصِيتَهْ بِنْتِنَـا الـرَّزْنِـهْ كِـثِـيرَ المَـالْ يَشْرِيهـا
قلِيلَ المالْ وَاحِزْنِهْ

المعنى :

ياصيته! ، يابنتنا الرزينة ، يشتريها كثير المال . . أما الفقير فإنه سيحزن كثيراً (لعدم قدرته على نيلها) .

كانت صيته بَديناً وهادئة الطبع . وحين كان النوري يرتعش فَرَقاً على حياته ، في بعض الأحيان ، كانت صيته ترقبه ليل نهار لتحول دون تسميمه أو اغتياله في بيته . مثل هذه المرأة لايقتنيها إلا الغني .

أَهَـلْ صِـيـتَـهْ يحـلُّونْ سُـكـارَىَ مـايـبـذِلُـونْ
عـلى الـسـاقـاتْ يُعَيُّـونْ وَاهَـلْ صَـحْـنٍ يحِطُّونْ

المعنى :

يَحِلُّ أهلُ صيتة [على الأعداء كما لو كانوا غنماً] لأنهم كالسكارى لايخيفهم شيء ! ولايبالون بأخطر البقاع ، وهم أهل صحون تملأ للطاعمين .

يتصرف المقاتلون في الهيجاء كما لو كانوا يذبحون غنماً فحسب (يحِلُّون).

الساقات : هي الأماكن المعرضة لهجوم العدو المباشر ، ولذلك فهي خطرة جداً . ولايهمل الشيخ ذو المكانة هذا الخطر فحسب ، بل يتعمد الذهاب إلى هذا النوع من الأمكنة ليجنب قومه الخطر ، وليدمر العدو بنفسه . ولهذا يُمدح أهل صيته لرباطة جأشهم عند البأس ، ولبسالتهم وكرمهم لأنهم يضعون الطعام في الصحن أمام ضيفهم .

يـاصِيَتَـهْ مِحْـزِمِـكْ جِـبْـرِي عَلَيـهْ مْنَ الـذَّهَبْ شِـبْـرِ

المعنى :

ياصيته إن حزامك جِبْرِي(؟) عليه من الذهب ماسُمْكُهُ شِبْر .

تضع ، عادةً ، بناتُ الشيوخ الأقوياء وأزواجُهم فوق ثيابهن حزاماً من الصوف أو الحرير نسجت مع قماشه خيوط ذهبية أو فضية .

جِمَـلْ صِيتَهْ شَبَـا الـمَطْلاعْ جَعَـلْ مِـنْ تَبْغُضِهْ تِنْـلاعْ
يِمْـوتْ وْلَيِـدَها الرَّضَّـاعْ

المعنى :

جملُ صيتةَ تسلق التل ، لعلَّ من تبغضه تصاب بلوعة! فيموت وليدُها الصغير الرَّضَّاع .

شَبَا المَطْلاعْ ، تعني أن بعيراً يحمل هودجاً أنيقاً تسلق مرتفعاً ، فبرز الهودج في الأفق ،

وبات يُرى من بُعْدٍ . يؤمن البدو بأن النظرة الحاسدة الغاضبة قد تُلحق بالإنسان ضرراً قاتلاً ، ومن هنا دعى على المرأة التي تنظر مثل تلك النظرة إلى بعير صيتة بأن يعاقبها الله . تِنْلاع : تعني أن تَنْحَفَ المرأة نحافةً مفرطة ، وتفقد منظرها الصحيح ، وْلَيِد : طفل ذكر صغيرٌ ، تؤثره الأم على الأنثى ، لأنه يُعزِّزُ ، وسيعزز مستقبلاً المكانة التي تتمتع بها الأم في البيت . وبفقده تفقد ، في الغالب ، سعادتها مدى الحياة ، حيث يطلّقها حينئذ زوجُها ، وقد تضطر للانتظار الطويل قبل أن تجد رجلاً آخر ، بسبب الخوف من أن روحاً شريرةً تتبعها .

يـامُـهْـرَهْ قِـيـدَتْ مِـنْ بِـيَنْ نَـزْلِـينِ
قَـوَّادَهَـا خـالـدْ لَايـابَـعَـدْ عَـيـنِي

المعنى :

يامهرةً قِيدتْ . . من بينِ قَطِيَنين . .

قائدها خالد . . أفديه بنفسي . .

المقصود بالمهرة هنا زوج خالد بن المرحوم الأمير سطام الشابةُ ، وكان قومها مقيمين يوم الزفاف ، غير بعيد .

يـابَـكْـرِةِ حُـرَّهْ يـامَـشـيْـهـا زَفْـزَافْ
رَكَّـابَهـا مَمْـدُوحْ يَـقْـلُطْ وَلَا يَخَـافْ
تِـسِـلّ سِـلِـيـلَ المَـا تَخْـطُمْ عـلى الاسْـلافْ
يَـرْمِـي وَلايِخْـطِي يَـقْـعُـدْ ولايِـنْـشـافْ

المعنى :

يالَلْبَكْرَةِ الحرة . . ماأسرع سيرها! . .

راكبها ممدوح . . يتقدم دون خوف . .

تسيح كما يسيح الماء . . فتتجاوز المقاتلين المتقدمين . .

إنه [أي ممدوح] يرمي فلا يخطيء . . إذ يقعد [متهيأً للرمي] فلا يُرَى .

كان ممدوحٌ أصغرَ أبناءِ الأمير سطام وأجرأَهم . لم يكن أيُّ عدو يستطيع الصمود أمامه في الهيجاء ، بل يفر فيضربه ممدوح من الخلف فيسقط على عنق مطيته .

يَقْلُط : تعني إما «ينحني» أو «يدفع رَحْلاً أو راكباً إلى الأمام» . سِليلَ الماء : طوفان هائل ينحدر مندفعاً فجأة ثم يختفي كما ظهر . هنالك أودية ، أو على الأصح ، قنوات ، يصل طولها إلى مائتي كيلومتر وتظل جافة سنين عديدة . فإذا نزل مطر كثير ، واستمر طويلاً ، فإن الماء يندفع بسرعة البرق عبر القناة (الشِّعْب) مفاجئاً البدو الذين صادف أنهم يحلون في جانبها المنخفض ، ثم يختفي كما جاء . مثل هذا الطوفان ليس (سَيْلاً) بل (سَلِيلاً) . وناقة ممدوح تظهر غير متوقعة مثل هذا (السِّلِيل) كما تختفي مسرعة مثل اختفائه لمقدرتها على الوَخِيدِ السريع .

السَّلفَ : جماعة من المقاتلين يتقدمون القبيلة الراحلة . وناقة ممدوح دائماً تسبق (السَّلفَ) .

يَقْعُد : تعني أن ممدوحاً ، الذي ما فتئَ صغيراً ، ينحني مع كل طلقة لكي يتقن «التهديف» . ولذلك لايرى ، خلف رقبة بعيره . لقد كان عمره عام ١٩٠٩ ثماني عشرة سنة ، لا أكثر .

● تربيـة الأطفـال ●

يظل الصبيان والبنات معاً مع أمهم حتى السابعة ، ويذهبون إلى أبيهم للتحدث معه بين الحين والحين فحسب . فإن لم يكن أبوهم قد طلق أمهم فإنهم يقيمون في قسم النساء ، ويتولون أداء الأعمال الخفيفة .

وإن اقترفوا مايوجب العقاب ضربوا بِعَصاً ، ولايضربهم أبوهم أو أمهم وحسب بل والعبيد ذكوراً وإناثاً . ويرى الرولة أن أصل العصا من الجنة (**العصا اِظْهَرَتْ مْن الجَنَّة**)،وأنها أيضاً تقود الإنسان إليها .

ويعتني الصبيان الأسنُّ بالأَمْهارِ فيرعونها ويسقونها ويركبونها حين ينتقلون من مكان إلى آخر، كما يأتون بالحطب إلى قسم الرجال وبالماء للضيوف . . إلخ ، ويجلسون القرفصاء مع الرجال

حول النار مصغين للأحاديث ، كما يتعلمون تلاوة القصائد والأغاني ، فيتعرفون بهذا على الشؤون العامة كافة .

ويتعلم الصبيان الرماية قبل بلوغهم الرابعة عشرة ، كما يشتركون في غارة واحدة على الأقل قبل أن يبلغوا السادسة عشرة ، وفي هذه المرحلة لايفكر الأب بمعاقبة ابنه إذا عصاه بعصاً فحسب بل يستخدم سيفاً أو خنجراً بدلاً منه . إنه بجرح أبنائه أو طعنهم لايعاقبهم فقط بل يعوِّدهم على الصلابة والقوة لمستقبل أيامهم .

إن الابن الذي لايطيع أباه ، قد اقترف في رأي البدو جريمة العصيان التي لاعقاب لها كالسيف (السَّيفُ لِمَنْ عَصَا) .

● ألعـاب الصبيـان ●

لايبقى الأولاد دون عمل أبداً . فإن لم يشتغلوا بمساعدة أبويهم فإنهم يلعبون ، وبعض ألعابهم خطرة ، وكلها ، على أية حال ، فيها تصليبٌ لعودهم ، وإذكاء لملكاتهم .

الرَّمْحَة : في هذه اللعبة ، يَصُفُّ الصِّبْيَةُ صَفَّيْن ، يمسك الصافُّون بكل صف بعضُهم أيدِيَ بعض ، ويقفون في مكانهم ، ثم يتقدمون نحو الصف الآخر ، ويرفسون أندادهم إلى أن يتدحرج جزء كامل من الصف (يْتَرَامِحُون). ولا تنتهي اللعبة حتى تغدو بطون كثيرين منهم سوداً وزرقاً ، لكنهم يظلون واقفين طالما استطاعوا تحمل الألم .

الشَّارَهْ : وهي لعبة بمكان من الخطورة عظيم ، يأتي الصبيان بمحاذِفِهِمْ (مِقْلاع ، والجمع : مَقَالِيْع)[١٣]، ويجمع كل منهم عدداً من الحجارة الصغيرة ، ثم ينفصلون إلى جماعتين متعاديتين ، ويعلنون الحرب فيما بينهم ، ثم يقذفون الحجارة من محاذِفِهِمْ (يْتِشارُون). ويسيل الدم دائماً . وغالباً ماخسر صبيٌّ عيناً ، أو يُشَجُّ رأسه ، أو يكسر عظم ذراعه أو ساقه ، بل إنه قد يسقط ميتاً ، ومع ذلك لايمنع الآباء أبناءهم أبداً من اللعبة . وإن مات صبيٌّ فعلى أهل اللاعب الذي قتله دفع الدية ، ونصفها عن الجروح الخطيرة الأخرى ، فإن لم تمكن معرفة الجاني وجب أن يدفع أهل الصبيان المشاركين في اللعبة جميعاً تعويضاً من هذا النوع يسمى «المِدَّهْ الغْشِيَّهْ» .

الـمَعْكَاله: لعبة أخرى ، ليست بخطورة سابقتها ، يخلع الصبي غترته، ويعقد عقدة في وسطها ، واضعاً فيها حجراً ، ويقف لدى الباب (باب الميدان : المِيدْ) ثم يرمي الغترة إلى رفاقه المنتظرين على بعد خمسين خطوة ، ومن يتمكن من الإمساك بها يضرب الآخرين وهم يعدون نحو الباب ، ثم يعود إلى مكانه ، ويلقي الغترة بين الأولاد الذين يصيحون به : أعط الغترة من اعطاكها «عَطْها مِنْ عطاكِيها»، وتُسْتَأْنَفُ اللعبة من جديد .

وهنا أيضاً ، قد يعود غلام إلى بيته وفي رأسه شجة متورمة أو في جسمه جرح يسيل منه الدم .

مُذْمَحْ سارَهْ : يلعب الصبيان ليلاً ، لعبة تسمى «مُذمَحْ سارَه» فيأخذون عوداً حادَّ الطرفين «شُظاظْ» من ذلك الضرب المستخدم لربط رُواقِ البيتِ الخلفيِّ لِسَقْفِهِ . يقف أحد الصبيان لدى باب الميدان «الميد» ويُلقي العود لرفاقه الذين يقفون على بعد نحو عشرين خطوةً منه . فيهتف الصبي الذى يلتقفه : (مُذْمَحْ سارَهْ ، مُذْمَحْ مِعِي)، وينطلق في الحال نحو الباب ، فيرمي الآخرون بأنفسهم عليه محاولين أَخْذَ العُودِ وصائحين : أنا ذو القوة ، سأحطمك! «ابا العْرِيَـك والعارِكْ». أما الغلام المهاجَمُ فيذود المهاجِمين بأقوى مايستطيع ، طاعناً إياهم بالعُود ورافساً وعاضاً آملاً أن يصل إلى الباب والعُودُ معه . ومعظم الجروح الناتجة من هذه اللعبة ، ترى آثارها ، بطبيعة الحال ، على ملابس اللاعبين .

الحاجِيهْ : وعند إرادة لعب «الحاجِية» تحفر حفرة في بقعة مستوية من الأرض ، وتحفر وسطها حفرة أصغر منها وأعمق. وتوضع على جانب الحفرة الكبيرة حصاة مدورة «حاجِية»، ثم ترمى من الباب حصاة مشابهة «سِيك» لكنها أكبر ، نحو الحصاة الأولى لإسقاطها في الحفرة الكبيرة حيث لابد أن تتدحرج في الحفرة الصغيرة . وحين يؤدي الأولاد جميعاً (أدوارهم)، يمتطي الصِّبية الذين نجحوا في وضع الحصاة في موضعها رفاقَهُم ذوي الحظ الأقل حُسْناً ، والذين يجب أن يحملوهم من الحفرة حتى الباب . وغنيٌّ عن الذكر أن هؤلاء الراكبين نادراً ماغاب عنهم أن يَنْخَسُوا جوانبَ أفراسِهِمْ لقسرها على الإسراع !

خِيلْ وْخِيلْ : وفي هذه اللعبة تُختار الأفراس والراكبون بالقرعة ، ثم يستوي الراكبون على ظهور «الخيل» التي تحملهم حتى الهدف المحدد ، وهناك تصيح «الخيل» : (الخِيلْ أَقْلَابْ)

وتنقلب على جانبٍ واحدٍ لتتخذ مقاعدها على ظهور راكبيها .

الطَّقَّه : وفي هذه اللعبة يتسلح كل صبي بأحدِ أعوادِ الخيمةِ الكبيرة ، ثم يضع صبي يقع الاختيار عليه بالقرعة ، عُوداً صغيراً مدببَ الطَّرَفَيْنِ «شظاظ» على أعلى حجر قريب ، ويضربه بعودِهِ الكبير ، لكي يجعله يطير في الهواء قليلاً ، ثم يَصُكُّه وهو في الهواء صَكَّةً عنيفةً تقذف به نحو اللاعبين الآخرين الذين ينتظرون على بعد نحو ثلاثين خطوة أو أربعين ، فيحاول كل منهم أن يُصَدَّ العُودَ الصغيرَ الحادَّ المنطلقَ بعوده ليعيده من حيث أتى . وطالما لم يفلح أحدٌ في ذلك ، فإن العود يعاد للصبيِّ الأول الذي يستمر في اللعب إلى أن يتمكن أحد رفاقه أخيراً من إصابته فيحلُّ محلَّه .

وحين يحاول اللاعب صَدَّ «الشَّظاظْ» ، غالباً ماضرب «الشظاظ» رَأْسَهُ أو كَتِفَيْهِ مما يَنْتج عنه آثارٌ لايصعب تصورها .

الدِّهْدَوَهْ : وفي هذه اللعبة تتقطع غُتَرٌ كثيرة مِزَقاً إذ يُدَحرِجُ صبيٌّ حجراً كبيراً من أعلى مكانٍ منحدرٍ قليلاً ، بينما يحاول الآخرون إيقافه «عَكَشُه» بِغُتَرِهِم ، ولَمْ يُفلح في ذلك الحقُّ في أن يدحرج الحجر «يْدَهْدِيه» .

عِقَى عَقَبْ : وهي لعبة يعدو فيها الأولاد نحو الهدف ، الذي يقع على بعد مائة خطوة تقريباً . ومَنْ يَصِلُ أَوَّلاً يهتف : (عِقَى عَقَبْ) وهو أمرٌ للآخرين بأن ينحرفوا ويعودوا نحو نقطة الانطلاق عَدْواً . وأولُ صبي يصلها يصيح الآن بالكلمات نفسها : (عِقَى عَقَبْ) ويطير مع الآخرين نحو الهدف . ويكرر ذلك حتى يتعب الجميع ، وأخيراً يهتف الذي يصل الهدف أولاً : (كُرْكُبْ خَشَبْ) أي : كَوْمُ خَشَبٍ ، ويسقط على الأرض ، ويحذو الآخرون حذوه ، فيرقدون دون حراك برهة ، لكنهم بعد ذلك يبدأون في رفسِ كلِّ ماحولهم وضربِهِ بغضِّ النظر عمن يضربون!

● أهازيج تغنيها البنات ●

ليس للبناتِ ألعابٌ كهذه . لذلك فهن يؤلفن من وقت لآخر في الليل مجموعتين (جَوْقَتَيْنْ أو كورَسَيْنْ) ، ويغنين بالتناوب (يِسِمْرَنْ) أهازيج منوعة (سُمِير).

تَـفَـوَّلُـوا بِـالـفَـضَـا يَـا الِّـلى طَـلَـبْ فـالي
فـالي رَشِـيـدٍ والـرِّشِـدْ طـيِّـبَ الـفـالِ

المعنى :

تفاءلوا بأن تجلسوا في مكان فسيح ، يامن طلب فألي ، إن فألي طيبٌ ، والطَّيِّب ذو الفأل الحسن .

حين توشك النساء والصبايا ، على ابتداء (سُمَّيرِهِنّ) يجتمع الرجال والشبان غير بعيد . وقبل الغارةِ أو أيِّ حدثٍ ذي شأن يهتم الرجل بأول كلمة تتلفظ بها المرأة أو الفتاة التى يحبُّها ويتفاؤلون بتلك الكلمة ، أو يتشاءمون ، ويحاولون أن يخمِّنوا منها ما إذا كان سينجح أَمْرُهم أوْ لا . ولمعرفة الفتيات بذلك فإنهن يبدأن بالأهزوجة المذكورة أعلاه .

الفضا ، أي السهل الفسيح الذي لايمكن أن يُكْمَنَ للبدوي فيه ، فأل حسن ، في نظره . وخيرٌ من أي فألٍ ، على أية حالٍ ، الحظُّ نفسُه أو النتيجة الناجحة .

انْـحُـودِرُوا لـلـسُّـمَّـيْـر وَالـزِّمِـلْ بـالمِسْراحْ
مِـنْ هُـو يِهِـدَّ الـطِّيْرْ مَـعْـلُوقْ قْـلِيـبِـهْ راحْ
يِـلْفِـي عـلى مَـرْتِـهْ يـانِـجْـمِـةَ المِـصْـبـاحْ
إرْخِـي طْـرَيـفَ السَّيْـر قِـيـفِـي عـلى المِـبْـطاحْ

المعنى :

اجتمعوا (للِسُّمَّير)، والرواحل في المرعى . .

والذي يدرب الصقر ، لقد انقطع شريان قلبه . .

وسَيَفِدُ على زوجته ، يالها من نجمة صباح! . .

أَرْخِي طَرَفَ السَّيْرِ (الحزام)، وقفي على عمود الرحل . .

تدعو الفتياتُ والنسوةُ الجميعَ لحفلِهِنّ (السُّمَّير) لأنه ليس ضرورياً الاستيقاظ مبكراً في

صباح اليوم التالي ، لأن رواحل الشيخ لم يعدن بعد من المرعى . فيسمعن من يدرب صقره فيرثين له ، لأن الصقر ذهب بعيداً وعاد إلى زوجه . وقبل أن يرحلن يدعون أجمل أمرأة في المعسكر بأن تقف في رحلها ، وتضيء ماحولها إضاءة نجمة الصباح .

تستعمل كلمة (انْحُودْرُوا) أي (اجتمعوا أسفل) أو (انزلوا معاً) لأن (السمير) يعقد دائماً في مكان خفيض يتوفر فيه (الذَّرَى) عن الريح .

أَرْخِي طْرِيفَ السَّير : أرخى طرف حِزامِكِ (بريمك). تلبس كل امرأة حزاماً ذا سُيُورٍ جلديةٍ رقيقةٍ على جسدها العاري ، وعند دخولها الهودج ترخى هذا الحزام لكيلا يضايقها خلال الرحلة .

قيفى : قِفي .

يـارَبِّ يـاخـالِـقَ الّليـلْ هـاتَ المِطَرْ من سحابِهْ
مـازال نوافْ عـلى الخيـلْ والمـال كـلٌ يهـابِـهْ
يستـاهِـل الـوَرِدْ والهَيـلْ والنَّـذِلْ يَقْمَـحْ شِبـابِـهْ

المعنى :

ياربي ياخالق الليل أنْزِلِ المَطَر من سحابه . .

مادام نواف (مستمراً في الغارة) على الخيل فلا يجرؤ أحدٌ على مساسِ مالِ القبيلة[١٤].

انه لخليق بأن يُهْدَى إليه الوَرْدُ وحَبُّ الهال (الهيل)! أما الرجُلُ اُلنَّذْلُ فَلْيَكْبحْ جِماحَ شجاعته الفَتِيَّةِ .

الورد : تعني رائحة الورود ، بإلاضافة إلى الوردة نفسها ، وحب النساء ، الهيل : (حب الهال) يضاف للقهوة ، والتي تعد على هذا النحو لاتصب لسوى الأبطال .

النذل : تعني هنا الشيوخ الأكبر سناً وهم الأكثر حذراً ، الذين لايسمحون ، وعلى رأسهم الأمير النوري ، لنواف وصحابِهِ الشبان ، أن يوالوا الغارات حتى على القبائل المعادية ، لأنهم يخشون طلب الثأر .

يـارَبِّ يـامْـعَـوِّلْ تْـعَـوِّلْ عـلى هِـلْنـا
نَـبـني بُـيـوتَ الـعِـزّ نَـنْـزِلْ مـنـازِلْـنـا
نَـرْحَـلْ عن هـالـدِّيـرهْ وْعَـنْ وَسْـطَـهـا جِـلْنـا
يِـسْـلَمْ أَبُـو نَـوّافْ يَـرْحَـلْ ويـنَـزِّلْـنـا

المعنى :

ياربي يامعيد ، أعدنا إلى أهلنا . .

نبنى . . . . . .

نرحل عن هذه الأرض ، ونذهب عن وسطها . .

فَلْيسلَمْ أبو نواف يُرَحّلنا من مكانٍ ويُنْزِلنا مكاناً آخر . .

إن لم تَفِ بحاجة الرولة أراضيهم ، بينما يتوفر الخصب (الربيع) في الأراضي المتنازَع عليها ، فإنهم ، عادةً ، يمضون إلى المستوطنات التابعة لهم في البر الداخلي ، ويفرغون إمداداتِهم ورحالَهم وبيوتَ شَعْرِهِم الكبيرةَ ، وَيَدَعُون النساء والأطفال والشيوخ هناك ، وينتقلون بقطعانهم إلى تلك الأراضي لمدة شهر من الرعي ، على الأقل ، وهناك يسكنون بيوتَ شَعْرٍ صغيرةً ، وبعضهم في الفضاء ، ويطبخون طعامهم بأنفسهم ، أو يكلون إلى امرأة واحدة أو جارية الطبخَ لعددٍ من البيوت . . ودائماً يقيمون بيوتَهم بين قطعانهم ، مستعدين للدفاع عنها ليلاً ونهاراً . وسرعان ماتضيق النسوة والصبايا اللواتي يرافقنهم ذَرْعاً بهذا النمط الحياتي . كما عُبِّر عنه في أغنيتنا .

بيوت العز : هي البيوت الكاملة التي تتطلبها مكانة مالكيها الاجتماعية . جالَوْا : «اختفوا من هذه المنطقة» اِنْجالَ الغَيم : «اختفى الغيم ، تلاشى».

يـارَبِّ يـامـالي عَـطْني فَضَـا بـالي
فـوقْ اوضـحٍ عـالي مـع وسط حِـيّـاني
وْجُـوزٍ عـلى بـالي وزْمَـيِّـم حَـمْـراني

المعنى :

يارب يامن ليس لي سواه ، هب لي راحة بالي . .

(يَسِّرْ لي) أن أركب على جملٍ أبيض عالي الظهر ، وسط أهلي ،

وزوجاً موافقاً لهواي ، وزِماماً[١٥] ذهبيًّا صغيراً .

فضا بالي : الذهن الصافي ، والضمير الطيب ، والروح السليمة غير المقهورة .

تتمنى كل صَبِيَّةٍ أو امرأةٍ أن تركب عند الظعن في هودج مزركش على جملٍ ناصع البياض . وتفخر كلٌّ من القبيلة والأسرة بمثل هذا الجمل ، وتكون الزينات التي تُعَلَّقُ عليه واضحةً وضوحاً تاماً .

وتكون الفتاة وسط أهلها آمنةً تماماً .

ولايُعَلِّق «الزِّمَامَ» في الأنف في الحاضر عدا نساءٍ رويلياتٍ قليلات .

يـاراكـبٍ هُمَـيـلَعْ راعَيـهْ مـايُـومِي عصـاهْ
يـامِنْ ذَكَـرْ صْـوَيحْبِي يـادايْـرِهْ يـامِـنْ لِـقـاهْ
اِرْعِهْ مع ذْوَيدٍ عَـزِيبْ وِمْـزَرْفِـلٍ يَـمَّ الفَـلاه
وَلا لِـقَـيـت الا الخَـلا والـذيـبْ جـلاني عْـواهْ

المعنى :

أيا راكباً بعيراً وديعاً ، لايحتاج راكبه حتى للإيماء بعصاه[١٦]،

من يذكر لي أنه رأي حبيبي (الذي فقدته) في أي مكان؟

من بحث عنه؟ من رآه؟

إنه مع ذودٍ من الإبل قليلٍ قد عَزَب في المرعى ، وإنى منطلق إليه في الفلاة .

لكني لم أُلْفِ سوى الخلاءِ الذي أبعدني عنه عواءُ الذئب .

لم يجد العاشق حبيبته في المنزل الجديد ، فشرع يسأل ويبحث عنها . لقد اعتادت أن تركب

في هودج على جملٍ وديعٍ (هِمَيلَع) ذي هيكلٍ قصيرٍ ، وتشير لحبيبها بالعصا التي تسوق بها مطيتَها .

الذَّوِيد : الذَّودُ الصغيرُ من الإبل ، يكون للعائلة الواحدة ، وإذا خرج الابن ، الذي يهتم عادة بالقطيع ، في غارةٍ انتقل الاهتمام به للابنة .

العَزِيب : هو المرعى الذي يكون على مسافةٍ من المنزل بحيث تقضي الإبل ثلاثَ ليالٍ أو أربعاً ، على الأقل ، بعيداً ، ولايردن الماء أو يأتين للحي حتى اليوم الخامس .

مْزَرْفَلٍ : مثل (ذومل) تشير إلى خطوة البعير العجلى .

الفَلاَه : المرعى ذو العشبِ الطيبِ والأشجارِ الدائمةِ الاخضرارِ .

شِـدُّوا من الزَّمِـلْ عَلْيَـان شَيـل اللَّهَـدْ مايْدَانِيـهْ
والحِكُمْ حُكْم ابْن شعلان مَقْـرُودْ[١٧] يالـلي تْراجِيـهْ

المعنى :

ضعوا الرَّحْلَ على البعيرِ المسمى «عَلْيان» من بين الرواحل . .

انه لايُحِبُّ مُطلقاً الحِمْلَ الثَّقيل . .

والحكم حكم ابن شعلان يَالَكَ من سيءِ حَظٍّ يامن تعارضه !

الزَّمِل : تطلق هذه الكلمة على الإبل التي تحمل الأثقال ، وهي دائماً جِمَالٌ تَحْمِلُ بيوتَ الشَّعْر والمُؤَنَ وعِدَّةَ الشيخِ كلَّها . وفي نخوة الرولة تدعى القطعان كلها «عَلْيا» التي عُنيت الإبل بها هنا في كلمة (عَلْيان).

اللَّهَد (الجمع اللّهود) : هي الجراح الصلبة أو القروح على ظهر الجمل أو جانبيه التي يسببها الحِمْلُ الثقيلُ أو الموزَّعُ توزيعاً غير متساوٍ ، أو الرحل غير المستقيم سواء كان رَحْلَ حِمْلٍ «حْدَاجَهْ»، أو ركوبٍ «شْدَاد» فإن اختفت تلك البقع الصلبة فَبِها ونِعْمَتْ ، وإن صارت قروحاً وانفتحت فإن النتيجة هي الجراح المتقيحة (دْبَرَه ، الجمع : دُبَر).

الإبل التي يملكها الرولة لاتطيق الأثقال التي تجرح ظهورها . وأسرة ابن شعلان الحاكمة لن تطيق المعارضة .

يـارَبْـعَـةٍ بِـنْـيَـتْ شِـدَّتْ عَـراويـهـا
وْرَوَّحَـتْ زِرْفـاتْ يِـرْجَى الـعَشـا بِـيـهـا
تِحُـوفَـهـا مْـنـيـفَـهْ يِـفْـرَحْ بِطاريـهـا

المعنى :

يالها من (رَبْعَةٍ) بُنيت . . . لقد شُدَّت عُراها . .

وقد راحت [الأمهار] زَرَافات . . وكل فارس يرجو العشاء فيها [أي في الربعة] . .

وتُعِدُّ مُنِيفة العَشاء . . تلك المرأة التي يفرح الشبان اذا ذكروها .

الرَّبْعَة : قسم الرجال في بيت الشيخ ، كما تطلق أيضاً على بيت الشَّعْر كله .

العراوي : العُرَى ، أو عُقَدُ حبالِ بَيْتِ الشَّعَر المثنية التي يمكن توسيعها أو تضييقها حسب قوة الريح .

رَوَّحتْ زِرْفات : العبيد والخدم والشبان الآخرون الذين يخرجون ، في المساء ، على ظهور الخيل ليحموا القطعان العائدة من أي هجوم ممكن . وكلمة «روَّح» تحمل دائماً دلالةً على السكن الليلي .

يـاخَـيِّـي يـاعَـزْوةٍ لِيِّ طَـريحَـكُـمْ لايْـضَـامِ
وسـلاحَـكُـمْ مُـسْـتَـجِـلٍ يَـقْـصُـمْ صَلِيب الـعـظَامِ
عَـدُوَّكَـمُ مُـسْـتَـمِـلٍ عَـيَّـتْ عُـيـونِـهْ تـنـامِ

المعنى :

ياأُخَيَّ ، يامن هو مثيلي في النسب، . . إنَّ من تطرحونه عن حصانه لايضام . .

وسِلاحُكُمَ مشهور ، يَكْسُر القويَّ من العظام[١٨]!

وعَدُوُّكُمْ خائفٌ ، أبَت عيناه أن تغمض!

تُثني الصَّبِيَّة على بسالة حبيبها ، الذي هو من أقاربها الأدنَيْن . حين تقال كلمتا «عزوةٍ لي» بسرعة فكأنهما كلمتا «عزوة اللي»، لأن الصوت «إن» يضاعف المقطع التالي . «لِي عِزْوةٍ» تشير إلى القرابة من جهة الأب ـ «مْنَ اين يِعْزَى فلان؟» تعني : «إلى أين ينسب فلان؟ من أي قبيلة هو؟» يعزى من آل فلان «وينسب لآل فلان».

الطريح : تعني المقاتل المتدحرج على الأرض بعد أن أُلْقِيَ من على سرجه .

يـاخَـيِّـي يـامـالي وَرَاكْ لـي شِـنْـيـانْ
يـاخيِّي اَبْـغي امـارِي بـلَـمَّـة الـعُـرْبـانْ
فـوقْ اشْـقَـحٍ عـالى نِـوَفْ عـلى الـقِـعْـدانْ
أُمَّـهْ عْـتـيـبِـيَّـهْ وابـوه مـن الـعَـدْوانْ
وَالايْـفِـهْ هَـجْـمَـهْ سـودٍ كـما الـغِـرْبـانْ

المعنى :

يا أُخَيَّ ، يامن يساوي كل ما أملك ، إن أُمَّك وأُخْتَكَ كلتيهما تمقتانني[19].

يا أُخَيَّ إني أود أن أظهر شجاعتي حين يلتئم شمل القوم . .

على جمل أبيض عالي الظهر ، ينوف حسنه وقوته على حسن الجِمال كلها وقوتها .

أمه عتيبية ، وأبوه من العَدْوان .

وأُلَّافُهُ هَجْمَةٌ (قطعة) من النوق ، سود الألوان كالغربان . .

تتمنى هذه الصبية أن تصحب عربها في أشد القتال ضراوةً ، أملاً في أن تكسب ودَّ أُمِّ حبيبها وأخواتِهِ .

وراك : «وراءك» تشير هنا إلى الأقارب الإناث . يجلس أعضاء الأسرة الذكور في الجزء المخصص لهم من بيت الشَّعْر وظهورهم إلى الحاجز الذي يفصلهم عن قسم النسوة . وأي شخص لديه شأن مع الرجال يقعد مواجهاً لهم ، وإن أراد ذكر أعضاء الأسرة الإناث قال بإيجاز : «وراءك . وراءك».

لَـمَّـة العُرْبَانْ : تعني «العرب سيجتمعون لِصَدِّ هجومٍ معادٍ» .

تقطن قبيلة عتيبة في شرقي المدينة ومكة والعَدْوان إلى الجنوب الشرقي منهم .

ولون الإبل السائد في نجد هو الأسود «الأملح».

يـارَبِّ تْـسـاعِـفْـني عـلى كِـلّ مـا أريـدْ
فـوق اوضـحٍ عـالي بْـزَيـن المَـعَـالـيـقْ
وغْلَيـمٍ يَـشْـني لـيـا يَـبْـسَـت الـرِّيـقْ
صُـفْـرٍ اسْـحُـوبِـيَّـهْ بْـقَـرْمَ الاوالـيـدْ

المعنى :

ياربي أَعِنِّي على تحقيق كل ما أريد . .

[أود أن أجلس] على جملٍ أحمرِ اللون عالي السنام ، في هودج مزركش . . .

(ومعي) شاب يحميني ، حين يجف الريق . .

شاب بطل ، على فرس صفراءَ أصيلٍ ذاتِ ذيلٍ طويل . .

زين المعاليق : رحل «قتب» قد زُرْكِش بزيناتٍ كثيرة ، ووضع على جمل أبيض عالي الظهر .

غلام ، تعني رجلاً شاباً ولكن باسلاً . يجف الريق من الخوف حين يهجم العدو على القبيلة الظاعنة ، ويحاول سلب الحسان من كل من الإبل والهوادج المزركشة . إنها ساعتئذ تحتاج مدافعاً شجاعاً .

يـاسَـمـا رَبِّـنـا بـذرَاكْ نِـذِّرِجْ
نـطلبـك طـولـة الـ عـمـر مـانِـفْـتِـرِقْ

المعنى :

ياسَمَاءَ رَبِّنا[٢٠]. إننا نلوذ بحماك . .

(ياربنا) نطلبك ألا نفترق طول العمر . .

لن تفارق الحبيبة حبيبها.

رِيـدٍ بـغـى رِيـدٍ سُـحْـبٍ دَرِجْ مـاهـا
يِـلـفْـى عـلـى شَـوقِـهْ واحُـلُو لامـاهـا
يِـعْـجِـبِـه بِـالـظِّلْمَا مْـلاعَـجْ ثَـنَـايـاهـا

المعنى :

المحب الذى يشتاق للحبيب ، كالسحب التي يهطل ماؤها . .

وحين يأتي إلى حبيبته ، ذات شفاه ما أحلاها . .

يعجبه في الظلام تلألؤ ثناياها . .

يـامرحَبَـا يـامَـرْحَبَـا بِـطْويَـرِشَ الـقِبْـلِهْ لِـفَـى
وليـا لِفَـى جانـا الحَيـا

المعنى :

يامرحبا يامرحبا ، بالمسافر نحو القبلة (الجنوب) الذي عاد) وإذا عاد جاءنا المطر .

طويرق القبلة[٢١]: ريح الجنوب ، التى يتبعها عادة المطر .

يـاطـارِش الـقِـبْـلِهْ عَـيَّـنْـت حِـيَّـانِي؟
والـلـي ورا بُـصْـرَى والـلـي بْحُـورَانِ؟

المعنى :

أيها المسافر القادم من القبلة (الجنوب) أرأيت أهلي ، ومن وراءَ بُصرى ، ومن بِحَوْرَانَ؟ .

ترجى ريح الجنوب أن تأتي بالمطر أيضاً إلى المناطق الواقعة إلى الشمال الغربي من بصرى ، وكل المناطق التي حول حوران لتجد قطعان أهل الفتاة منتجعاً حين ينزلون هناك .

● التعـــليقـــات ●

(•) هذا فصل آخر من كتاب (أخلاق عرب الرولة وعاداتهم) الذي يقوم الكاتب بترجمة قسم منه . وقد نشرت (الدارة) فصلين آخرين منه في عددها الثاني من السنة العاشرة الصادر في المحرم سنة ١٤٠٥ على الصفحات : ١٣٠ ــ ١٥٢ ، والأول من السنة الحادية عشرة الصادر في شوال من السنة نفسها على الصفحات : ٩٥ ــ ١٢٢ .

(١) في الأصل : آل أجيضر .

(٢) هكذا في الأصل ، ولعل الصواب «عَيِّل» (الجمع : عيال) كما في كثير من اللهجات الأخرى .

(٣) في الأصل : يتغالهJetaraleh ، وهو تحريف .

(٤) هذه ترجمة تفسير المؤلف لمعنى الأبيات ، ولايبدو أنها تلتزم بمعنى البيتين .

(٥) هذا تعريب تفسير المؤلف لكلمة (كَرّ) وهو معنى غير معناها المعروف لدى مختلف القبائل الأخرى ، وهو : أرسِلْ أمرٌ من كَرّ ، يكِرّ : أرسَلَ ، يُرْسِل .

(٦) هكذا ورد الرجز باختلاف الروي .

(٧) ترجمة معنى صدر البيت الثاني حسب ترجمة المؤلف : فلاسمع بأخبارهم وأنهم قطنوا ليقيموا .

(٨) المؤلف : «... فإني (في مكابَدِك) عليَّ ألا أبالي إن غَضِبْن» .

(٩) المؤلف : نواف ، ياطارد الحزن .

(١٠) ترجم المؤلف معنى عجز البيت الثاني ماترجمته هكذا : «فأي قطيع سيخافه» ونرى أنه بعيد عن المعنى المراد .

(١١) ترجم المؤلف «الأشقح» : الرمادي ، والمعروف في اللهجات الأخرى أنه «الأحمر المشرب ببياض» . ويستبعد أن يكون عند الرولة هو الرمادي .

(١٢) «بينما كان الآخر يرمي الفرسان برمحه» هذه ترجمة شرح المؤلف للعبارة الأخيرة ، وقد ابتعد نوعاً ما عن المعنى وإن كان المضمون واحداً .

(١٣) محاذفهم ، جمع مِحْذَف ، وهو في العاميه «مِقْلاع» أيضاً ، وهو مؤلف من خيطين يتصلان برقعة صوفية بحجم اليد المبسوطة ، يوضع فيها حجر ، ثم يديرها الرامي عالياً ، ويطلق أحد الخيطين فيقذف الحجر . ويستخدم عادة في طرد العصافير أو الجراد عن مزارع الحبوب ، ويستخدمه الصِّبْية عند مايتشاجرون .

(١٤) المؤلف : «فكل ممتلكات العدو تخشاه» وهي ترجمة خاطئة .

(١٥) الزّمام (وتصغيره زُمَيِّم) : حلقة تتحل بها المرأة تعلقها في أحد منخريها بعد ثقبه .

(١٦) أي أنه سريع لايضطر راكبه لحثه على السير . أما المؤلف فوضحه بما تعريبه «يامن تركب غالباً بعيراً وديعاً ، إنها لاتشير بعصاها» وشرح ذلك فيما بعد بأن المقصود أنها تشير لحبيبها بعصاها الذي تستعمله لِسَوْق جملها . وبرغم هذا الشرح مازلنا نرى أنه أخطأ في ذلك . فمن عادة الشعراء مدح المطية بأنها لاتضطر سائقها لِسَوْقها .

(١٧) في الأصل (مقرودٍ) بتنوين الدال ، وبه ينكسر الوزن .

(١٨) المؤلف : «يكسر عظام الظهر فيفصلها إلى قسمين» .

(١٩) هذا تعريب ترجمة المؤلف . أما معنى عجز البيت فهو : «إنّ خلفَك قَوْماً كارهين لي» .

(٢٠) المؤلف : «يا اسم ربنا» ، والكلمة في البيت «سما» وليست «اسم» ويبدو أن المؤلف خلط بينهما .

(٢١) هكذا في الأصل : «Twéret al-bible» . وهي في البيت في الأصل طويرش القبلة «Twéret al-bible» .

● ● ●